الآداب
المجلد:21، العـــدد:01، ديسمبر 2021
الصفحات:379 - 403

منطلقات الخطاب الإسلامي عند محمد الغزالي
قراءة في رسالة مصدر الاعتقاد الحق

The foundations of Al-Ghazali's Islamic Discourse: A Reading in the Letter 'the Source of the Right Belief'

أ.د الشريف حبيلة[1]

[1]جامعة الإخوة منتوري- قسنطينة1- الجزائر habilacherif@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/07/02 تاريخ القبول: 2021/01/27 تاريخ النشر: 2021/12/15

ملخص:

من الذين عكفوا على تجديد الخطاب الإسلامي الشيخ (محمد الغزالي) رحمة الله عليه، حيث كتب كتابا عنونه بـ (قضايا المرأة) يقدم فيه تصوره للمرأة المسلمة، وما يهمنا هو العنصر الذي قدم به الباب الأول من الكتاب تحت عنوان (مصدر الاعتقاد الحق)، وقد سميته بالرسالة، ذلك أن الكتاب في شكل رسائل موجهة للمسلمين أسسها على العنصر الأول، وإن جاء ضمن الباب الأول فهو يؤسس للكتاب كله، ويشمل كل ما جاء فيه، منه يؤسس (الغزالي) للأبواب الأخرى، يشكل تصوره حول ما يناقش من موضوعات تخص المرأة.

وجاءت الدراسة لتكشف منطلقات الخطاب الإسلامي عند (الشيخ محمد الغزالي)؛ التي أسست لمفاهيمه وتصوراته الفكرية والثقافية، وخطابه الدعوي. فالهدف تفكيك العنصر، وحل شفراته للإمساك بما يقدمه من منطلقات. لذا كان التعامل مع لغة خطاب (الغزالي) باعتبارها ممارسة فكرية واجتماعية، تتفاعل مع الواقع الذي تتداول فيه، تجعل النص ضربا من التواصل بين مرسل ومتلق، يحمل هدفا ويحقق أثرا، وما ينتجه من دلالات داخل السياق الذي يتفاعل معه. كما يكون التعامل مع الخطاب وفق إستراتيجية منفتحة على معارف ومناهج حسب ما تستدعيه الضرورة، والموقف، كاعتماد اللغة في تفكيك المفهوم، لما تحمل من تصور، وارتباطها بالواقع الاجتماعي والثقافي الذي أطر هذا المفهوم.

المؤلف المراسل: الشريف حبيلة.

كلمات مفتاحية: الغزالي، المعتقد، الخطاب، المنطلقات.

Abstract:

Among those who embarked on renewing Islamic discourse Sheikh was Mohammed al-Ghazali, God rest his soul. He wrote a book entitled 'Women Issues' addressing in which he provides his conception of the Muslim woman. What is of interest to us is the element with which he introduced the first part of the book under the title 'the Source of the Right Belief), which I have called 'the letter'. This is because the book is in the form of letters addressed to the Muslims and founded on the first element. Since it introduces the first part, it is the foundation of the whole book. It depicts al-Ghazali's conception of the discussed issues related to women.

The study reveals the sources of al-Ghazali's Islamic discourse, which were the foundation of his intellectual and cultural concepts and which he used when calling to Islam. The aim is to decompose and decode this element and to grab the bases that it presents. Therefore, dealing with the language of al-Ghazal's discourse, as an intellectual and a social practice, which interacts with the reality in which it is used, and which makes the text a type of communication between sender and receiver, who bears an aim and achieves something, and the meaning is produced within the context of interaction. Dealing with discourse is also following a strategy which is open to all sorts of knowledge and methods when need be, such as using language to decode a concept because language bears a certain perception and it is linked to the social and cultural reality which frames such a concept

***Keywords*:** Ghazali; belief; discourse.

مقدمة:

يعد الخطاب الديني من القضايا التي بدأ الاشتغال عليها، لما له من تأثير في المجتمع، ودوره في تشكيل الوعي والفكر الفردي والجماعي، متجاوزا ذلك إلى صناعة سياسات الدول سلبا وإيجابا، كما يعتبر الدين من أهم العناصر التي ساهمت في قيام الحركات الاجتماعية لارتباطه المباشر بمشاكل الواقع وتحدياته. وكونه شكلا من أشكال الصراع الاجتماعي والأيديولوجي والحضاري، وصار موضوعا يهتم به الباحث، والسياسي، والإعلامي، وقد مثل الخطاب الإسلامي بؤرة ذلك الاهتمام في الخطاب الديني، لامتلاكه أهمية في التحولات التي شهدها العالم، إلى جانب المد الديني المتمثل

في التدين الذي طال العالم الإسلامي والغربي على السواء، فظهرت دراسات وآراء متباينة وصلت حد التناقض، بل حد الصراع، بعضها يفسر، وبعضها يبرر، بينما ذهب البعض إلى طرح قضية تجديد الخطاب الديني الإسلامي.

ومن الذين عكفوا على تجديد الخطاب الإسلامي الشيخ (محمد الغزالي) رحمة الله عليه، فقد عمل على تقديم الفهم الصحيح للإسلام كما يراه، خاصة في الموضوعات الراهنة، التي تواجه الإنسان المسلم، وتلك المتعلقة بالمرأة، إذ شهدت جدلا كبيرا بين مختلف أشكال الخطاب الإسلامي المتنوعة بتنوع الفهم لمصادر هذا الدين، بل وصلت حد الصدام والتناقض، في زمن الثقافة الوافدة من الغرب، وفي الموضوع كتب الشيخ (محمد الغزالي) كتابا عنونه بـ (قضايا المرأة) يقدم فيه تصوره للمرأة المسلمة وفق فهمه للقرآن والسنة، وما يهمنا في الدراسة هو العنصر الذي قدم به الباب الأول من الكتاب تحت عنوان (مصدر الاعتقاد الحق)، وقد سميته بالرسالة، ذلك أن الكتاب في شكل رسائل موجهة للمسلمين أسسها على العنصر الأول، وإن جاء ضمن الباب الأول فهو يؤسس للكتاب كله، ولو ورد خارج التبويب لكان أسلم من الناحية المنهجية، لأن هذا العنصر يشمل كل ما جاء في الكتاب، منه يؤسس (الغزالي) للأبواب الأخرى، يشكل تصوره حول ما يناقش من موضوعات تخص المرأة.

وجاءت الدراسة ل تكشف منطلقات الخطاب الإسلامي عند (الشيخ محمد الغزالي)؛ التي أسست لمفاهيمه وتصوراته الفكرية والثقافية، وخطابه الدعوي. فالهدف تفكيك العنصر، وحل شفراته للإمساك بما يقدمه من منطلقات. لذا كان التعامل مع لغة خطاب (الغزالي) باعتبارها ممارسة فكرية واجتماعية، تتفاعل مع الواقع الذي تتداول فيه، تجعل النص ضربا من التواصل بين مرسل ومتلق، يحمل هدفا ويحقق أثرا، وما ينتجه من دلالات داخل السياق الذي يتفاعل معه. كما يكون التعامل مع الخطاب وفق إستراتيجية منفتحة على معارف ومناهج حسب ما تستدعيه الضرورة، والموقف،

كاعتماد اللغة في تفكيك المفهوم، لما تحمل من تصور، وارتباطها بالواقع الاجتماعي والثقافي الذي أطر هذا المفهوم.

نص: مصدر الاعتقاد الحق[1]

عندما اتتبع آيات الله في الأنفس والآفاق ارتبط بالواقع وأنأى عن الخيال، وفي هذا الارتباط يستوي عندي الضخم والضئيل! فللكبير جدا عظمته، وللصغير جدا دقته!

الواحد الذي على يمينه عشرون صفرا يمثل عددا هائلا في الضخامة فإذا كان الواحد ذو الأصفار العشرين يمثل كسرا عشريا اعتياديا كما يقال في علم الحساب فالأمر بالغ والضآلة.

ومن هنا فأنا أتعرف على آيات الله في عالم الكواكب، كما أتعرف عليها في عالم الجراثيم، هذه ترى بمنظار مكبر وتلك ترى بمنظار مقرب...

وربما تخيلت ما أراه من آيات بعد مروري به، كنت في الجزائر فشاهدت جبلا يشبه حرف الألف، كان صخرة شاهقة يرتد الطرف عن قمتها، وتوهمت كأنه يريد أن ينقض!!.

وبعد ساعة من البعد عنه عادت صورته إلى خيالي فقلت: أما يزال يريد أن ينقض؟ لا، سيبقى كذلك حتى يأذن الله، ويتحقق: **(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا)**.

وكما سبح بي الخيال هنا يسبح بي الخيال وأنا أتصور الألوف المؤلفة من الشموس والنجوم الدوارة في الفضاء البعيد، إنها كشمسنا المألوفة تشرق وتغرب ونحن أيقاظ أو رقود، قد تبلغ مليارات من الكواكب تجري غير متوقفة ولا متعثرة، هي كما وصفها الله **(والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا)**.

إنها مسخرة بأمر ربها، دوارة بإذنه وحمده، ويوشك أن يأذن لها بالتوقف والانطفاء، متى؟ **(يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة)**.

إن أمجاد الألوهية تذهل العقل، ويزداد الذهول عندما أعلم أن المشرف على هذه السماوات الوسيعة مشرف على مليارات الخلايا في مخ واحد، بين خمسة مليارات مخ بشرى تسكن الأرض!

ذلك عدا كائنات أخرى يقول فيها جل شأنه (**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون**).

إن القوانين التي تنتظم الكون من الذرة إلى المجرة واحدة.

في النهر الذي أتخيله من الشرايين الممتدة في كل جسم بشري لا تند قطرة واحدة من الدم الساري في العروق، لا تند عن علم الخالق ومشيئته وقدرته وحكمته.

فإذا تركت المادة إلى الفكر، تكررت العبرة نفسها، إن تيار الشعور الذي يهتز في بدني إدراكا ووجدانا ونزوعا –كما يعبر علم النفس– ليس حكرا علي وحدي، إنه ينتظم الخلائق طرا.. فكل خاطر يساور نفس بشر، وكل علم يحصله، كتبه أو قرأه، سجله أو لم يسجله، ذكره أو نسيه، كل كذلك ينتظم صفحة واحدة أمام رب العالمين، جامعا بين شتى اللغات وشتى الأزمنة (**وكل صغير وكبير مستطر**) يستحيل أن يغيب عنه، أويتم بعيدا سمعه وبصره وإحاطته!!.

أريد أن أقول للمسلمين: إن قرآنكم هو المصدر الأول للاعتقاد الحق، وإن علوم الكون والحياة هي الشارح الجدير بالتأمل والمتابعة.. وإن العظمة الإلهية تزداد تألقا في عصر العلم وإن التقدم العملي صديق للإيمان، وخصم للإلحاد.

وأريد أن أحذر المسلمين من منتسبين إلى العلم لا قدم لهم فيه، فليس فرويد أو دوركايم من العلماء. إنهم مفكرون مرضى ضلوا السبيل. وليس ماركس وأتباعه علماء. إنهم كهان جدد. استبدت بهم علل نفسية. وما كانوا يستطيعوا السير لولا الفراغ الذي أتيح لهم من قصور المتدينين وتفريطهم في جنب الله.

في البدء لماذا رسالة:

لماذا سميت هذا العنصر بالرسالة؟ الكتاب في شكل رسائل موجهة للمسلمين أسسها على العنصر الأول وإن جاء ضمن الباب الأول فهو يؤسس للكتاب كله، ولو جاء خارج التبويب لكان أسلم من الناحية المنهجية –كما قلت– لأن هذا العنصر يشمل كل ما جاء في الكتاب، منه يؤسس

الشيخ الغزالي لأبواب كتابه، يشكل تصوره حول ما يناقش من موضوعات تخص المرأة؛ أي يؤطر تصوره للمرأة. وسأوضح ذلك أكثر في عنصر بنية الرسالة.

أولا– مفهوم الخطاب:

وردت كلمة الخطاب في (لسان العرب) لـ(ابن منظور) الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان. وفصل الخطاب: أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وقصده. وقال الأصفهاني "الخطب، والمخاطبة، والتخاطب: المراجعة في الكلام وفصل الخطاب: ما ينفصل به الأمر من الخطاب"[2].

كما وردت في القرآن الكريم في مواقع كثيرة عرضت للخطاب من جوانب مختلفة؛ منها قوله تعالى (**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**) [الفرقان الآية 63]، وفي قوله (**وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب**) [ص الآية 20]، وقوله تعالى (**رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمان لا يملكون منه خطابا**) النبأ الآية 37. والملاحظة في سياق ورود لفظ (الخطاب) في القرآن أن الخطاب جاء مقرونا بالحكمة، والعزة، وشدة البأس[3]. وفي هذا المفهوم القرآني يمكن إدراج كلام (محمد الغزالي)، الذي جاء كي يفصل في المنطلقات التي يجب أن تؤسس لفهمنا تجاه قضايانا الحياتية.

وتتحرك المعاني المعجمية لكلمة خطاب من الفكر إلى الكلام في أشكالها المتنوعة، ومن ثم إلى المناقشة المثبتة أو النص أحيانا، مع توجه تلقيني (كما في الموعظة)، أو قطعة استدلالية مبسوطة. ويحتفظ النعت المقابل للخطاب استطرادي(discursive) بشيء من هذا التوتر بين معاني الحديث والمحاججة المنظمة: فهذه الكلمة إما أن تعني (هائم متنقل من موضوع إلى موضوع) أو (متسلسل نابع من استدلال أو حجة؛ أي استدلالي). وفي استعمالها المعاصر نحتاج إلى أن نميز بين الخطاب، بمعنى النص الموحد من حيث الموضوعة أو الموقف كتكوين متماسك للمعرفة أو الحقيقة، والخطاب بمعنى شيء مثل كون اللغة منظمة كشبكة من علاقات المعرفة، الاجتماعية لذا رأى صاحبي قاموس (Dictionnaire Fondamental du Français Littéraire) أن

كلمة خطاب صعبة التحديد، بسبب استخدامها الذي يحيل على حقائق مختلفة. ثم إن تأثير اللغة على العلوم الاجتماعية يتجلى في تحليل هذه العلوم بصفتها خطابا، وذلك بإرجاعها إلى اللغة[4].

وتطور مفهوم الخطاب في عمل (ميشال فوكو) (حفريات المعرفة)، حيث يعد نمطا من تنظيم المعرفة في علاقة بممارسات السلطة وصورها، التي غالبا ما تتجذر في تنظيمات تسيطر، وتنبني على معارف منهجية متميزة[5]؛ وهذا يعني أن تشكيلات (فوكو) الخطابية متباينة، ولا تتكون أيضا من ممارسات مادية وبنى تحدد كيف تتكرر عبر ميادين اجتماعية مختلفة ونتائجها والمواقف الكلامية التي تتيحها، والموضوعات والحقائق التي تبعثها وتضفي عليها بعض الواقعية، " وذلك من خلال إبراز كيف تنتشر المعرفة العلمية وتكون مناسبة لولادة مفاهيم فلسفية وتفصح عن نفسها أحيانا، وعند الاقتضاء، في الآثار الأدبية؛ كيف تهاجر المشاكل والمفاهيم والأفكار المحورية من الحقل الفلسفي الذي تشكلت فيه إلى خطابات علمية أو سياسية؛ يربط الآثار بالمؤسسات والعادات وأنواع السلوك الاجتماعية والتقنيات والحاجات والممارسات الصامتة؛ يعمل على بعث ماضي أشكال الخطاب، الأكثر تطورا وإحيائها ثانية في صورتها الأصلية المحسوسة وداخل ذات النمو والتطور اللذين شهدا ميلادها"[6]، وهو ما تفعله بعض الفئات الاجتماعية في فهمها للخطاب الإسلامي حين استرجاعها لبعض الظواهر والمفاهيم الدينية، فتعيد إحياء خطابات الحقب الماضية في صورتها الأصلية التي ولدت عليها، وفي الظروف نفسها، لكن في زمن غير زمنها.

وإذا سلمنا بأن النص لا يختلف عن الخطاب فإن المفهوم المحدد لكليهما لدى علماء تحليل الخطاب أو لسانيات النص "هو مجموع الإشارات النصية التي ترد في تفاعل اتصالي"[7]، أو هو "إنتاج يشمل كل وسائل الاتصال، كون النص يرد دوما في سياق اجتماعي محدد يشترط مشاركة المشاركين في الاتصال لتحقيق أهداف اجتماعية أو شخصية، إن النص يمتلك وجودا اجتماعيا ما ينعكس في المضمون وفي الاستراتيجية المتبعة من طرف المشاركين في الاتصال، وهم ينظمون النص ويصيغونه"[8].

ويدرس تحليل الخطاب أبنية النصوص، مهتما بأبعادها اللغوية، والاجتماعية، والثقافية من أجل فهم تشكيل المعنى. لذا يتقاطع مع اتجاهات منهجية أخرى تهتم كذلك بإنتاج المعنى، فنظرية الاتصال

وثيقة الصلة بحقول أخرى، ترى المعنى محصلة عملية الاتصال التي عناصرها مرسل ورسالة وشفرة، ومتلقي، وقناة اتصال، وسياق. وتتضمن الرسالة معنى ما، وكلما تم التركيز على أحد هذه العناصر أنتج لنا وظيفة معينة قد تكون: تعبيرية، أو توجيهية، أو إخبارية، أو اتصالية، أو مرجعية، أو شعرية.

ورأى النقد البلاغي الذي اتخذ الاتصال إطارا له في كل خطاب حضورا وتفاعلا بلاغيا تحكمه قوى سياسية واجتماعية، تحمل النص برموز ذات مقاصد، قادرة على التأثير على الوسط المحيط، ومن ثم عد النص وإنتاجه، ووسائل إقناعه مهمة الخطاب الذي اتجهت البلاغة لدراسته. وإذا كان الاستعمال اللغوي يستند إلى التفاعل الاجتماعي والظروف الثقافية، فإنه يغدو فعلا معرفيا. وبذلك يكون الخطاب وسيلة خلق حقائق مؤسساتية، وإعلان وظائف تفرضها المؤسسة على الظواهر الطبيعية لخدمة مقاصدها وترسيخ أنظمتها من العلاقات وبني القوة وتكريسها؛ ويعني هذا أن تحليل الخطاب يمنح عناية ما وراء اللغة من تفاعل وسياق محيط[9].

هكذا صار تفسير النص بإرجاعه إلى عناصره الأولى المكونة، والكشف عن نظام العلاقات الذي تنتظم بنيته، والأعراف الثقافية التي تدخلت في بناء معناه. فكانت النقلة من القيم الجمالية إلى البنى الاجتماعية، وتناول المعنى بوصفه تأسيسا اجتماعيا يرتبط بشبكة من التداعيات وأهداف منتجيه ومتلقيه.

لذا كان لابد من الكشف عن هذا الخطاب الذي قد يؤدي تحليل مضمونه، وفهم عناصره إلى معرفة كيفية إنتاج وحداته ووظيفتها داخل السرد الثقافي والسياق الاجتماعي. كما يرشدنا ذلك إلى تمييز المفاهيم والتصورات داخل المضمون، وفهم دلالات الرسالة، ونقصد الموضوعات والقيم والأيديولوجيا والتوجهات والمعتقدات، وطرائق التعبير لدى الأشخاص.

ثانيا– مفهوم الخطاب الديني:

يعد الخطاب الديني من التعبيرات الحديثة في مجال العلوم الاجتماعية عامة واللغويات الاجتماعية خاصة، ومجالات البحث في هذا الموضوع لازالت في بدايتها، "ويشير مفهوم الخطاب الديني إلى

ذلك البناء من الأفكار والمعتقدات التي تتسم بأهميتها الاجتماعية التي تتبع من ارتباطها بدين ما، ومن ثم تأثيرها في تكوين تصور متلقي الخطاب من المؤمنين بهذا الدين عن العالم الذي يعيشون فيه وتحديد كيفية تصرفهم إزاء هذا العالم" [10].

وقد جاءت الدعوات الساعية إلى تجديد الخطاب الديني، نتيجة المتغيرات العديدة وضروراته لكي يساهم في دفع مسيرة المجتمع نحو النمو، واكتساب القدرة على مواجهة هذه المتغيرات والتعامل معها بالكفاءة المطلوبة، وإذا كان هذا الخطاب هو: اجتهادات رجال العلم المتفقهين في الدين؛ فإنه من الواضح أن الاجتهادات البشرية لا يمكن أن تغلق، ولا أن تمس الثوابت الأساسية للعقائد الدينية نفسها، والتي تجسدها وتعبر عنها أركان الإيمان ثم أركان الدين المعين بالذات. فتلك الثوابت هي من الكليات أو القضايا الكلية التي لا يتصور أي عقل مؤمن أنها يمكن أن تكون عرضة أو موضوعا لأي نوع من الاجتهاد البشري، الذي يقتصر على الواقع الاجتماعي، كونه خاضعا لأغراض الزمان وتغيراته وضروراته، لذا يتغير الخطاب الديني من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة[11].

والمقصود بمفهوم الخطاب الديني Islamic Discourse المنظومة الفكرية التي تحوي مفاهيم ومقولات النظرية الإسلامية، التي تعين الفرد في حيز أحد جوانب الواقع الاجتماعي، وتسعى إلى تقديم مجموعة من التصورات الإسلامية والدلالات النظرية حول إحدى قضايا الواقع الاجتماعي أو إشكالاته المتباينة. إن استخدام مصطلح الخطاب من خلال السوسيولوجيا، يعني أننا سوف لا نهمل العملية التاريخية العامة التي يعد الخطاب جانبها الإبستمولوجي والنظري[12].

إن الخطاب الإسلامي وفق هذا المعنى ما هو إلا مجموعة من الطقوس والقيم الإسلامية التي تسعى إلى البحث عن نموذج مؤسس على شرع الله؛ ومحاولة تشكيل وعي أو إدراك الواقع وفق رؤية عقائدية. وبغض النظر عن طبيعة وشكل الخطاب الإسلامي، فإن ما نريد أن نشدد عليه هنا أن هذا الخطاب يعد نتاجا لشروط مادية وفكرية ومجتمعية. جاء من خلال مواقف تاريخية، خاصة في البنية التحتية وما تحويه من علاقات صراعية بين الطبقات الاجتماعية[13].

وينبثق الخطاب الإسلامي من الدين الإسلامي ويستند إليه، إلا أنه لا يمثل خطاب الإسلام ممثلا بنصوص الوحي من القرآن أو السنة، إنما هو خطاب (الإسلاميين) في التعبير عن الرسالة التي يوجهونها إلى الآخرين في شأن من الشؤون، فالإسلاميون هم أفراد أو جماعات يتميزون عن غيرهم بقراءة خاصة للدين الإسلامي، وبما يختلف عن قراءة غيرهم من سائر المسلمين[14]، فالخطاب الإسلامي في أصوله وأسسه لا يتغير لأنه مبني على عقائد وعلى عبادات وعلى قيم وعلى تشريعات لا تتغير لكن الذي يتغير هو الأسلوب.

ويرى بعض الباحثين أن الخطاب الإسلامي يؤشر إلى مجمل الرموز والإشارات الصادرة عن مرجعية معينة، تشكل صورتها ومظهرها العام، وتبرز خطوطها الفكرية، عبر عملية تواصل بين هذه المرجعية الفكرية والجمهور، في عملية تفاعلية يكون فيها الخطاب (وسيلة لا غاية) وهنا يلاحظ المأزق الذي وقع فيه أصحاب الأيديولوجيات عندما حولوا الخطاب لغاية بحد ذاتها، دون النظر إلى ما وراء الخطاب، كما يمكن النظر للخطاب على أنه مرادف لتصور أو موقف الشخص أو الجماعة بشأن قضية مطروحة، وعليه فإن الخطاب يعبر عن أيديولوجية الأفراد والجماعات، على اعتبار أن الأيديولوجية هي مجموعة منتظمة ومترابطة، من الأفكار والأحكام والمعتقدات الخاصة بجماعة ما في نظرتها للواقع والجماعات الأخرى.

وبناء على ما سبق يمكن تعريف الخطاب الديني الإسلامي، بأنه مفهوم مركب من لفظتين: الخطاب والإسلامي؛ لفظة (الخطاب) يعني المحاورة والمحادثة بين طرفين أو أكثر، ونسبته للدين يقصد فيها الخطاب الذي يعتمد على مرجعية دينية في مخاطبته وأحكامه وبياناته. قال ابن تيمية المقصود بالخطاب الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا. أما سمة الإسلامي فالمقصود بها الخطاب الذي يعتمد مرجعية إسلامية في المخاطبة، ويراعي أساسيات الدين، ويرسم أولوية على أساس القيم والمبادئ الإسلامية الثلاثة المعروفة وهي: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن[15]. والجدير بالذكر أن الخطاب الإسلامي ليس هو الإسلام، وإنما هو تفسير وتأويل وتفاعل العقل المسلم مع الدين كرسالة سماوية.

ثالثا– بنية الرسالة:

قلت إن العنصر ورد في شكل رسالة ذلك أن الشيخ (محمد الغزالي) يختمه ملخصا ما تم شرحه في شكل نتيجة، متوجها مباشرة إلى المتلقي الذي هو المسلمين، موظفا ضمير المخاطَب في قوله: "أريد أن أقول للمسلمين: إن قرآنكم هو المصدر الأول للاعتقاد الحق" وقوله: "أريد أن أحذر المسلمين"، ولو تأملنا المقطعين فإننا نجده انطلق في خطابه بضمير المتكلم (أنا) في الفعل (أريد، أقول)، ويتكرر في الملفوظين (أريد، أحذر)، ونلاحظ تكرار الفعل (أريد) مرتين تأكيدا على حرص المتكلم على تبليغ رسالته، والإحالة على أهمية الرسالة ومضمونها من جهة، وحظوة المتلقي (المسلمون) لدى المتكلم من جهة أخرى، وتجدر الإشارة إلى أن ضمير المتكلم قد هيمن على كامل العنصر، ولم يظهر المرسل إليه إلا في خاتمة الرسالة، ويعود السبب أن المرسل استغرق في الشرح والاستدلال بالأمثلة، فلم ينتبه إلى المرسل إليه إلا في النقطة التي أراده هو التركيز عليها والانتباه إليها، وإن كان لم يذكر المخاطب لفظا، فهو حاضر ضمنا، إلى جانب ضمير المتكلم (أنا) الذي هو المرسل، هنا المخاطَب وهو المرسل إليه (المسلمون) المتضمن في الملفوظ (المسلمين) المتكرر مرتين، وحضوره صريحا (كم) في العبارة (قرآنكم)، وقد أسند للفظة (القرآن) من طرف المرسل ليدلل على أن القرآن هو قرآن المسلمين، والضمير المتصل (كم) من حيث شكله الملتصق بكلمة (قرآن) ينتج دلالة التصاق المسلمين بقرآنهم، أو دعوة لهم كي يتمسكوا به من طرف المتكلم/المرسل، وفي الأخير نتحصل على عملية تواصل كاملة نمثل لها بالشكل الآتي:

القرآن/السنن الكونية/المرجع

محمد الغزالي/المرسل ⟵ الرسالة/مصدر الاعتقاد الحق ⟵ المسلمون/المرسل إليه

اللغة/القناة

خطاب عقلي ديني/الشفرة

المرسل: الشيخ محمد الغزالي وتصوره للإسلام، وفي الرسالة منطلقات الخطاب الإسلامي.

المرسل إليه: المسلمون في سياق معاصر يطرح قضايا تمس حياتهم اليومية، ومنها قضية المرأة التي يعالجها الكتاب ككل.

الرسالة: وهي مصدر الاعتقاد الحق؛ أي المنطلقات التي تجعل من تصور المسلمين لقضاياهم صحيحا.

المرجع: وهو القرآن؛ السند الذي يستمد منه المرسل والمرسل إليه تصورهما لقضاياهما، بالإضافة إلى السنن الكونية التي تؤكد ما في القرآن.

القناة: هي اللغة العربية، وهي مشتركة بين المرسل والمرسل إليه، وهي نفسها لغة المرجع.

الشفرة: وهي خطاب ديني/إسلامي، حيث يعتمد المرسل الآية القرآنية للتدليل على ما يقدمه، لاعتقاده أن لها سلطة على وجدان المسلمين، إلى جانب السنن الكونية التي تخاطب العقل، وجميعها ذات وظيفة إقناعية تقوم على الحجاج القرآني والعقلي.

رابعا– المنطلقات في الرسالة:

نحاول تقسيم النص إلى مقاطع من أجل الإمساك بالمنطلقات التي أسست للخطاب الإسلامي عند (محمد الغزالي)، في طرحه لقضية المرأة في كتابه (قضايا المرأة). وتم الاعتماد في تحديد المقاطع على البناء العام للنص، كما تظهره اللغة القائمة على المخاطبة، وقد انسجم ذلك مع البنية الموضوعاتية للرسالة.

1– فاتحة النص:

تتمثل الافتتاحية، في شكل مقدمة مختصرة في قول الشيخ "عندما اتتبع آيات الله في الأنفس والآفاق ارتبط بالواقع وأنأى عن الخيال، وفي هذا الارتباط يستوي عندي الضخم والضئيل! فللكبير جدا عظمته، وللصغير جدا دقته!"، حيث يحدد (محمد الغزالي) في صورة عامة مجملة منطلقاته، التي سيفصلها بعد ذلك، ولو تمعنا نجده يوجه الخطاب بضمير المتكلم (أتتبع، أرتبط، أنأى، يستوي عندي" وهي أفعال مضارعة تفيد الاستمرارية واليقين، يحققها الضمير (أنا)، وكل فعل هو نتاج

الفعل الذي سبقه، إلا الفعل الأول (أتتبع) الذي بدأ به الكلام، فهو من إنجاز (الأنا) الذي هو (محمد الغزالي).

إذن (الأنا) تتبع آيات الله فينتج عن هذا الفعل فعل (أرتبط)، وهو خاص أيضا بـ(الأنا)، التي ترتبط بالواقع، والنتيجة الحتمية للارتباط بالواقع النأي عن الخيال (أنأى)، يؤدي ذلك إلى تساوي الضخم والضئيل في نظر (محمد الغزالي)، وينتج الفاعل (أنا) و(ياء المتكلم) في (عندي) دلالة الخصوصية، خصوصية هذه النظرة (تساوي الضخم والضئيل) وهي نظرة (محمد الغزالي) حصيلة تتبعه لآيات الله في الأنفس والآفاق، وتتحول النظرة إلى يقين، تأتي هذه الرسالة موضوع الدرس لتنقلها إلى المسلمين جميعا، تدعوهم إلى إدراك الحق من خلال معرفة المنطلقات الصحيحة، واعتمادها في النظر إلى الواقع، والتعامل معه. ويمكن تمثيل ذلك بالمخطط الآتي:

الأنا

↓

التتبع/آيات الله في الأفاق والأنفس

↓

الارتباط/بالواقع

↓

النأي/عن الخيال

↓

التساوي/عند الأنا

↓

الضخم=الضئيل

↓

اليقين

وكنتيجة لذلك نحصل عل جملة من المعطيات:

- التأمل في الكون.

- الارتباط بالواقع والابتعاد عن الخيال (الخيال هنا قد يكون وهما من صنع الذات، أو استرجاع لواقع ماض، لا ينسحم مع واقع المسلم المعاصر).
- تكامل وانسجام المتناقضات (الضخم والضئيل/الكبير والصغير/العظمة والدقة- الإنسان/الحيوان- المادة/الشعور- الجامد/الحي).
- جملة من الموضوعات: آيات الله في الكون والأنفس – الواقع – الخيال.

هذه المعطيات، التي قد تمثل مبدئيا منطلقات الحق عند (محمد الغزالي)، تجد تفصيلها في باقي الرسالة.

2- أمثلة مادية:

يقدم محمد الغزالي مجموعة من الأمثلة هي:

المثال الأول رياضي: "الواحد الذي على يمينه عشرون صفرا يمثل عددا هائلا في الضخامة فإذا كان الواحد ذو الأصفار العشرين يمثل كسرا عشريا اعتياديا كما يقال في علم الحساب فالأمر بالغ الضآلة"

ونكتب هذه المعادلة الرياضية التي لا تتجاوز المنطق الرياضي الصوري/الشكلي، وتخضع للقانون الإلهي دون أن تناقض العقل، والعلم:

$$0.00000000000000000001 = \frac{1}{10000000000000000000} =/= 10000000000000000000$$

$$0.00000000000000000001 =/= 10000000000000000000$$

(عدد ضخم)=/=(عدد ضئيل)

والنتيجة أن آيات الله هي نفسها في الكبير والصغير على السواء:

$$0.00000000000000000001 = 10000000000000000000$$

فما يبدو متناقضا ظاهريا هو في الحقيقة منسجم، متماثل في نظامه.

المثال الثاني فلكي: "ومن هنا فأنا أتعرف على آيات الله في عالم الكواكب، كما أتعرف عليها في عالم الجراثيم، هذه ترى بمنظار مكبر وتلك ترى بمنظار مقرب"

ينبني الفعل (أتعرف) الذي تنجزه الذات على القاعدة الرياضية السابقة التي على العقل إدراكها حتى يتحقق فعل المعرفة، هي قاعدة تؤسس لفعل المعرفة، وتقدم للعقل السبيل الذي يسلكه، إذا أراد معرفة. وهي هنا تخص في الظاهر الكواكب الضخمة، والجراثيم المجهرية، التي تبدو متناقضة:

الكواكب (ضخمة)=/=الجراثيم (متناهية الصغر)

الأولى تُرى بمنظار مقرب، والثانية بمنظار مكبر. وبناء على القاعدة الرياضية يدرك العقل أن التناقض الظاهر، هو في جوهره انسجام، فالقاعدة التي تحكم الجميع واحدة، والخالق واحد:

الكواكب (ضخمة)=الجراثيم (متناهية الصغر)

المثال الثالث جغرافي: "وربما تخيلت ما أراه من آيات بعد مروري به، كنت في الجزائر فشاهدت جبلا يشبه حرف الألف، كان صخرة شاهقة يرتد الطرف عن قمتها، وتوهمت كأنه يريد أن ينقض!!.

وبعد ساعة من البعد عنه عادت صورته إلى خيالي فقلت: أما يزال يريد أن ينقض؟ لا، سيبقى كذلك حتى يأذن الله، ويتحقق: **(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا"**.

في المثال الجغرافي لا ينطلق (محمد الغزالي) من القاعدة الرياضية العقلية، إنما يعتمد الخيال (تخيلت، توهمت)، ودوما (الأنا) المتكلم هو الذي يقوم بالفعل، وهو هنا التخيل، لكنه تخيل مبني على الواقع تدل عليه العبارة (ما أراه من آيات) والرؤية هنا تخص شيئا موجودا ومتحققا في الواقع هو (جبل في الجزائر)، ونكون إذا أمام آية جغرافية حقيقية واقعية، وأمام فعل متخيل، غير واقعي في الحاضر تنجزه العبارة (كأنه يريد أن ينقض)، تشترك أداة التشبيه (الكاف) مع الفعل (تخيلت) في بناء الصورة المتخيلة، التي تستمر في ذهن المتكلم (وبعد ساعة من البعد عادت صورته إلى خيالي) والصورة هنا

ليست صورة الجبل الحقيقي كجبل، إنما صورته وهو يريد أن ينقض (فقلت: أما زال يريد أن ينقض؟) ويجيب المتكلم الذي هو (محمد الغزالي) (لا، سيبقى كذلك حتى يأذن الله، ويتحقق).

إذن الجبل لن ينقض الآن كما تخيلت (الأنا)، وإنما ينقض بعد أن يأذن الله له، وهنا تظهر حقيقة الصورة المتخيلة، فهي ليست خيال بمعنى الوهم توهمته (الآنا) إنما (انقضاض الجبل) حقيقة واقعة، ليس الآن. ولكن حين يأذن الله، والسؤال هنا، من أين لـ(الأنا) أن تعرف أن الجبل سينقض حتما؟ فإذا استطاعت أن تدرك وتفهم القاعدة التي تحكم الأفلاك والجراثيم بناء على قاعدة رياضية علمية أداتها في ذلك العقل، فإنها ستدرك أن انقضاض الجبل هو حقيقة خارج عن إدراك العقل، ويبقى السؤال: كيف صدقت (الأنا) ذلك وآمنت به؟، هنا تأتي الآية القرآنية مباشرة، ودون تنبيه، إذ لم يوظف (المتكلم) عبارة مثلا: (كما في قوله تعالى)، حضرت الآية لصيقة بعبارة (ويتحقق) النابعة عن اليقين، يقين الإنسان المسلم الذي هو (محمد الغزالي) (**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا**). وهنا نتعرف على مصدر آخر لليقين، وللاعتقاد الحق، حيث لا يمكن للعقل أن يشتغل، ويعجز عن الإدراك، أمام الظواهر الخارجة عن قدرته التي منحه إياها الله سبحانه وتعالى، إنه القرآن الكريم.

ونمثل لما سبق بالآتي:

الخيال=/=الواقع ⟵ الانقضاض=/=الجبل (كما يعتقد العقل البشري)

الخيال=الواقع ⟵ الانقضاض=الجبل (إرادة الله كما يبين القرآن)

النتيجة: القرآن الكريم مصدر الاعتقاد الحق.

المثال الرابع فلكي: وكما سبح بي الخيال هنا يسبح بي الخيال وأنا أتصور الألوف المؤلفة من الشموس والنجوم الدوارة في الفضاء البعيد، إنها كشمسنا المألوفة تشرق وتغرب ونحن أيقاظ أو رقود، قد تبلغ مليارات من الكواكب تجري غير متوقفة ولا متعثرة، هي كما وصفها الله (**والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا**).

إنها مسخرة بأمر ربها، دوارة بإذنه وحمده، ويوشك أن يأذن لها بالتوقف والانطفاء، متى؟ (**يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة**).

في هذا المثال يواصل (محمد الغزالي) اعتماد الخيال (وكما سبح بي الخيال هنا يسبح بي الخيال...)، فالخيال مزال يشتغل في تشكيل صور (الأنا)، وهي في المثال تخص مليارات الأفلاك السابحة، التي قد تتوقف في أية لحظة، والعقل أمام هذه الصورة المتخيلة يرفض التصديق، خاصة وقد أدرك الحقيقة الواقعية المتمثلة في أن هذه الكواكب تجري وفق قانون فزيائي محكم أكده العلم بالتجربة، كما أكده القرآن (**والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا**)، وهو قانون إلهي. قانون وضعه الله تعالى، فهل يمكن لواضع قانون أن يزيله؟ نعم، وهذا ما احتار فيه العقل، فتأتي الآية (**يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة**)، لتخبر العقل أن الأفلاك مسخرة بأمر الله تماما مثل الجبل، تنتظر أمر ربها، فإذا أذن لها توقفت وانطفأت. وهنا يجهل العقل متى يحدث ذلك، فهو شأن من اختصاص الله وحده.

والنتجية التي يوصلنا إليها التحليل أن (محمد الغزالي) في هذا المثال يجمع بين العقل/العلم والقرآن الكريم. فهناك الأفلاك السابحة وفق قانون وضعه الله تعالى، وأدركه العقل عن طريق العلم، وهناك هذه الأفلاك نفسها تتوقف وتنطفئ حين يأذن الله لها، والأمران (السباحة والتوقف) بيد الله. وهنا نكون أمام مصدرين: العلم والقرآن، وسيلة فهمهما العقل.

ونمثل لذلك بالآتي (وهو التمثيل نفسه في المثال السابق):

الواقع=/=الخيال ⟵ انتظام الأفلاك وفق قانون يحكمها=/=توقف الأفلاك وانطفاؤها

(العقل/العلم)

الواقع=الخيال ⟵ انتظام الأفلاك وفق قانون يحكمها=توقف الأفلاك وانطفاؤها

(إرادة الله)

فما يبدو مستحيلا مناقضا للعقل والعلم ظاهريا، يرفضه الواقع ويجعله في مستوى الخيال، تؤكده الآيات القرآنية، وتدل عليه، فيؤمن به القلب ويسلم العقل.

المثال الخامس بشري: "إن أمجاد الألوهية تذهل العقل، ويزداد الذهول عندما أعلم أن المشرف على هذه السماوات الوسيعة مشرف على مليارات الخلايا في مخ واحد، بين خمسة مليارات مخ بشرى تسكن الأرض!".

يأتي المثال الخامس ليؤيد تجاوز بعض الظواهر ومنها البشرية/البيولوجية لقدرات العقل (إن أمجاد الألوهية تذهل العقل)، كما يتمثل ذلك في خلايا مخ الإنسان، فما هي وسيلة الإنسان خاصة المسلم في تصديق ذلك والوصول إلى الاعتقاد الحق؟ هو القرآن الكريم، الذي لم يصرح به المتكلم في المثال. لكنه حاضر في اللغة تدلل عليه عبارة (أمجاد الألوهية)، وعبارة (تذهل العقل)، تستحضر مجتمعتان (القرآن)، فحينما يتوقف العقل عن الإدراك وتذهله القدرة الإلهية، يأتي القرآن الكريم ليوضح للعقل ما عجز عن إدراكه.

المثال السادس حيواني: "...ذلك عدا كائنات أخرى يقول فيها جل شأنه **(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون)** ".

ويخص (محمد الغزالي) القرآنَ وحده بالمثال الثالث، من خلال الآية **(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون)**.

وهي تذكر الحيوانات، قياسا على القاعدة المثال البشري (أمم أمثالكم)، وهنا ندرك أن القاعدة التي يخضع لها الحيوان هي نفسها، التي تحكم الأفلاك والجغرافيا، والإنسان، فالخالق واحد:

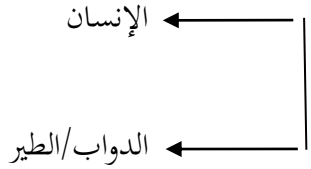

ويأتي الجزء **(ما فرطنا في الكتاب من شيء)** من الآية ليؤكد شمولية القرآن الكريم، وشمولية القاعدة الإلهية، التي تحكم الكون كله بما فيه من أفلاك وكائنات وإنسان.

القاعدة: "إن القوانين التي تنتظم الكون من الذرة إلى المجرة واحدة".

هكذا يخلص (محمد الغزالي) إلى أن القوانين التي تنظم الكون واحدة، سنها خالق واحد هو الله سبحانه وتعالى، وما على الإنسان إلا أن يعمل عقله، ويتمعن فيها بالعلم سنده القرآن الكريم، فيتمكن من فهم واقعه، فيدرك قدرة الخالق.

القدرة الإلهية: "في النهر الذي أتخيله من الشرايين الممتدة في كل جسم بشري لا تند قطرة واحدة من الدم الساري في العروق، لا تند عن علم الخالق ومشيئته وقدرته وحكمته".

فإلى جانب الأفلاك والكائنات الميكروسكوبية والجبال، والحيوان، والإنسان يعود (محمد الغزالي) إلى الإنسان لتأكيد عظمة الله وقدرته، فهذا الكائن يعد أظم ما خلق الله تعالى، ويكفي التذكير بشرايين الدم ونظام عمل هذا السائل، كلها مخلوقات هي نفسها آيات إلهية، تحكمها قوانين واحدة، وعلى العقل فقط أن يشتغل كي يدرك ذلك.

3– أمثلة من الشعور والفكر:

"فإذا تركت المادة إلى الفكر، تكررت العبرة نفسها، إن تيار الشعور الذي يهتز في بدني إدراكا ووجدانا ونزوعا –كما يعبر علم النفس– ليس حكرا علي وحدي، إنه ينتظم الخلائق طرا.. فكل خاطر يساور نفس بشر، وكل علم يحصله، كتبه أو قرأه، سجله أو لم يسجله، ذكره أو سيه، كل ذلك ينتظم صفحة واحدة أمام رب العالمين، جامعا بين شتى اللغات وشتى الأزمنة (**وكل صغير وكبير مستطر**) يستحيل أن يغيب عنه، أويتم بعيدا عن سمعه وبصره وإحاطته!!".

وحدات المقطع:

- تيار الشعور
- –كما يعبر علم النفس
- ليس حكرا علي وحدي
- ينتظم الخلائق طرا
- صفحة واحدة أمام رب العالمين
- شتى اللغات، شتى الأزمنة

– يستحيل أن يغيب عنه

بالقياس على ما تم يقرر (محمد الغزالي) أن (الشعور) ينتظم وفق القانون السالف، فهو واحد، وإذا كان العلم الدقيق قد كشف القوانين التي تحكم الفلك والجبال، وجسم الإنسان والحيوان وبكل أصنافه، والكائنات الدقيقة، فإن (علم النفس) كشف أن الشعور ينتظم بدوره وفق القانون نفسه. فهو واحد، ذلك أن خالق الشرايين والمخ هو نفسه خالق النفس والشعور، هو الله تعالى، ومهما اختلف هذا الشعور من شخص إلى آخر فهو (ليس حكرا علي وحدي)، بل (ينتظم الخلائق طرا)، الجميع (صفحة واحدة أمام رب العالمين)، وكل ذلك (يستحيل أن يغيب عن الله)، يؤكده قوله تعالى (**وكل صغير وكبير مستطر**):

القرآن الكريم

الشعور ← القانون الإلهي

علم النفس

يؤكد القرآن الكريم والعلم أن الشعور يحكمه القانون نفسه الذي ينظم المادة الحية والجامدة.

4– الهدف النهائي للرسالة:

"أريد أن أقول للمسلمين: إن قرآنكم هو المصدر الأول للاعتقاد الحق، وإن علوم الكون والحياة هي الشارح الجدير بالتأمل والمتابعة.. وإن العظمة الإلهية تزداد تألقا في عصر العلم وإن التقدم العلمي صديق للإيمان، وخصم للإلحاد.

وأريد أن أحذر المسلمين من منتسبين إلى العلم لا قدم لهم فيه، فليس فرويد أو دوركايم من العلماء. إنهم مفكرون مرضى ضلوا السبيل. وليس ماركس وأتباعه علماء. إنهم كهان جدد. استبدت بهم علل نفسية. وما كانوا يستطيعوا السير لولا الفراغ الذي أتيح لهم من قصور المتدينين وتفريطهم في جنب الله".

يبدأ المقطع بالفعل (أريد)، يتبعه الفعل (أقول)، وهو قول موجه للمسلمين دون غيرهم، نفهم أن كل ما تقدم هو تقديم يستدرج القارئ، ويبين له علميا وعقليا وبالقرآن الكريم وحدة القانون الإلهي الذي يحكم الكون، كل ذلك نوع من البرهنة التي توصل إلى الهدف في هذا المقطع، وهو تذكير وإقناع للمسلمين بأن قرآنهم هو المصدر الأول للاعتقاد الحق، وتأتي كلمة (الأول) لتبين أن القرآن ليس المصدر الوحيد، بل كما تبين هناك العلم الذي أداته العقل، وهما (القرآن والعلم) مصدران لا يتعارضان، وهو ما يوضحه قول (محمد الغزالي): (وإن علوم الكون والحياة هي الشارح الجدير بالتأمل والمتابعة.. وإن العظمة الإلهية تزداد تألقا في عصر العلم وإن التقدم العلمي صديق للإيمان، وخصم للإلحاد).

ينبني الفعل (أريد) على نتيجة الأمثلة السابقة، ويؤدي إلى القول، قول يتضمن مصادر الاعتقاد الحق، فيأتي (التحذير).

يتكرر الفعل (أريد) كما قلنا سابقا رغبة مخلصة من طرف (محمد الغزالي) في إصلاح اعتقاد المسلمين الذي شابته النظريات والطروحات الغربية (الماركسية، والفرويدية، والدوركايمية) في معالجة قضايا الإنسان المسلم خاصة قضية المرأة موضوع الكتاب، التي تلبس لباس العلم (فليس فرويد أو دوركايم من العلماء. إنهم مفكرون مرضى ضلوا السبيل. وليس ماركس وأتباعه علماء. إنهم كهان جدد. استبدت بهم علل نفسية) الناتجة عن تشويه المتدينين للدين، فـ(ما كانوا يستطيعوا السير لولا الفراغ الذي أتيح لهم من قصور المتدينين وتفريطهم في جنب الله). وهنا تنكشف المقابلة بين مجموعة من الثنائيات المتضادة المتخفية في المستوى اللغوي لكلام (الغزالي)، وهي:

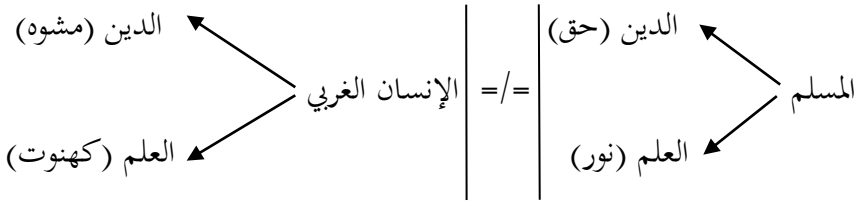

ندرك في الأخير أن النموذج الإلهي، الذي خلق عليه الكون واحد. لكن تمظهراته متنوعة، إنه القانون الخفي الذي نصل إليه بالعقل والعلم، ويدلنا عليه القرآن الكريم، وإذا أردنا اعتقادا حقا علينا بهذه المصادر كما دعا إليها (محمد الغزالي).

خامسا– تركيب:

نعود للقول أن (الغزالي) انطلق من قاعدة رياضية (عقلية/علمية)، إلى ظاهرة فلكية (عقلية/علمية) مادية، إلى ظاهرة جغرافية (عقلية/علمية) مادية أيضا، إلى أخرى فلكية مكررة (عقلية/علمية) مادية، إلى بشرية (عقلية/علمية) مادية، إلى حيوانية (عقلية/علمية) مادية، إلى ظاهرة بشرية (عقلية/علمية) مادية، وفي الأخير ينتقل إلى ظاهرة شعورية (عقلية/علمية) تختلف عن الظواهر المادية.

في المقابل تأتي الآيات القرآنية لتؤكد الآيات الكونية ومنطق انتظامها على قانون إلهي واحد، كما توضح، وتشرح هذه الأخيرة الآيات القرآنية. وهكذا نحصل على مصدرين: كوني/علمي وقرآني، وكلاهما يقودان المسلم إلى الحق، عليه يبني خطابه الإسلامي المتعلق بحياته اليومية، وقضاياه الراهنة؛ فالكون نص كوني، والقرآن نص لغوي وكلاهما إلهي، ندركهما كآيات تدل على خالق واحد، هو الذي خلق مخ الإنسان، ونظمه بطريقة مكنته من وضع علم الرياضيات، وهو الذي خلق الكون والفلك ونظمه، ومنح العقل القدرة على إدراكه وفهمه.

وهو الذي خلق الإنسان، ونظمه بيولوجيا، ومنح العقل القدرة على إدراك عظمة الجسم ونظامه. وهو الذي خلق الحيوان وجعل للعقل القدرة على إدراك اختلافه وتنوعه، وهو الذي زرع الشعور في النفس البشرية، ومنح للعقل القدرة على إدراكه، وبذلك يصبح ما هو متناقض منسجما؛ لأن القانون الذي يحكم الجميع واحد "إن القوانين التي تنتظم الكون من الذرة إلى المجرة واحدة"، ويؤطر كل ذلك الفعل (أتعرف) تحت عنوان (آيات الله): (الفلكية، الكائنات الدقيقة، الجبال، جسم الإنسان، الحيوان، الشعور).

وحينما يتحقق التعرف على حقيقة الكون كما تمثله الظواهر السابقة، تصل الذات إلى إدراك، وفهم القانون الإلهي، الذي يسير الكون مستعينة بالعقل والوحي. هذا القانون هو الأساس الذي يحكم الوجود المادي والشعوري، ومن ثم نستخلص منطلقا كونيا وآخر قرآنيا، بهما نؤسس لخطابنا الإسلامي تجاه واقعنا.

والملاحظ أن (الغزالي) يركز على العقل في فهم المنطلقين (الكوني والقرآني)، وكأنه يشير إلى أن العقل وحده قادر على التعامل مع متغيرات الواقع مؤسسا خطابه على القوانين الكونية والقرآن، فالقانون الذي يحكم الكون هو القانون نفسه الذي تتحدث عنه الآيات القرآنية، هناك تطابق بين الآية الكونية والآية القرآنية، وندرك أن الكلام ضمنيا يوجه إلى المسلمين كي يعتمدوا العقل، الذي يؤسسه المنطلقان (الكوني والقرآني)، يجعل الخطاب الإسلامي مبنيا على أسس صحيحة، مواكبا لكل ما هو متغير، والتمثيل الآتي يلخص ما تم قوله:

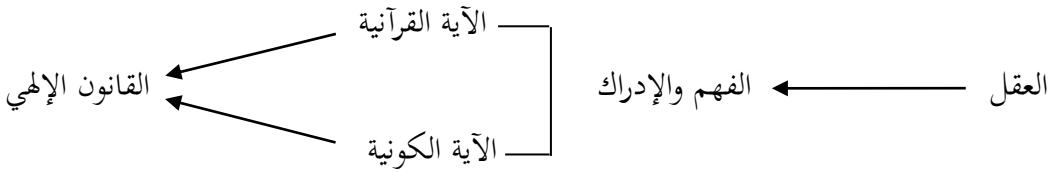

خاتمة:

ينتهي بنا القول إلى أن هذه المنطلقات تدرك بالعلم/العقل والقرآن، وهي أدوات المعرفة، معرفة المسلم لدينه ومصادر الاعتقاد الحق، وقضايا الواقع، إليها يدعو (محمد الغزالي) وإلى توظيفها، انطلاقا من القوانين الإلهية التي نظم على أساسها الله تعالى الكون والإنسان –الذي عليه أن يضبط حياته على هذا الإيقاع – وأنزل القرآن على كل ذلك دليلا.

هذه هي أدوات المعرفة، يؤسسها الفعل (أتعرف)، وهي ضد الجهل، شاملة للقعل والنقل. إنها منطلقات الخطاب الإسلامي عند (محمد الغزالي)، تجعل المسلم إذا انطلق منها ووظف الأدوات التي توصل إلى معرفتها، يستطيع فهم وضعه في الوجود.

الهوامش والإحالات:

[1]- محمد الغزالي: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الانتفاضة الجزائر ص12-14

[2] - عبد الجليل أبو المجد – عبد العالي حارث: تجديد الخطاب الإسلامي وتحديات الحداثة، أفريقيا الشرق، المغرب، 2011 ص11

[3]– المرجع نفسه ص12

[4]-Philippe Forest et Gérard Conio: Dictionnaire Fondamental du Français -Littéraire, Maxi-liveres 2004 p122

[5] – ميشيل فوكو: نظام الخطاب ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير بيروت 2007ص9.

[6] – المرجع السابق ص127.

[7]- فولفجانج هينه مان ديتر فيهقجر:مدخل إلى علم لغة النص،ترجمة سعيد حسن بحيري،مكتبة زهراء الشرق،القاهرة،ط2004/1 ص7.

[8]– المرجع نفسه ص8.

[9]- حسنة عبد السميع:سيميوطيقا اللغة وتحليل الخطاب،الإعلان التلفزيوني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية 2005 ص 2.

[10] – محمد عبد الله مكازي الجريبيع: الخطاب الديني في الفضائيات العربية، دراسة في سوسيولوجيا التأثير على الشباب الأردني، رسالة دكتوروراه إشراف حلمي ساري، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية 2009 ص18.

[11] – المرجع السابق ص127.

[12] – شحاتة صيام: العنف والخطاب الديني في مصر، سينا للنشر،القاهرة،ط1994/2 ص63

[13] – المرجع نفسه ص156.

[14] – محمد عبد الله مكازي الجريبيع مرجع سابق ص21.

[15] – المرجع نفسه ص12.

قائمة المصادر المراجع:

1- محمد الغزالي: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الانتفاضة الجزائر.

2- عبد الجليل أبو المجد – عبد العالي حارث: تجديد الخطاب الإسلامي وتحديات الحداثة، أفريقيا الشرق، المغرب، 2011.

3 -Philippe Forest et Gérard Conio : Dictionnaire Fondamental du Français .Littéraire, Maxi-liveres 2004

4- ميشيل فوكو: نظام الخطاب ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير بيروت 2007.

5- فولفجانج هينه مان ديتر فيهقجر: مدخل إلى علم لغة النص،ترجمة سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق،القاهرة،ط2004/1.

6- حسنة عبد السميع: سيميوطيقا اللغة وتحليل الخطاب، الإعلان التلفزيوني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية2005.

7- محمد عبد الله مكازي الجريبيع: الخطاب الديني في الفضائيات العربية، دراسة في سوسيولوجيا التأثير على الشباب الأردني، رسالة دكتوروراه إشراف حلمي ساري، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية 2009.

8- شحاتة صيام: العنف والخطاب الديني في مصر، سينا للنشر،القاهرة،ط1994/2.